الفصل العاشر
راى الطب النفسى فى متعاطى الخمر ودوافعه للتعاطى، وفيما إذا كان من الممكن أن يكون للمتعاطى إنتاج فكرى كإنتاج الخيام فى الرياضيات والفلسفة والأدب

*****

منهجنا فى هذا الفصل أن نعتبر الرباعيات بمثابة صحيفة لدراسة حالة من الحالات المرضية التى يتوفر عليها الطب النفسى، بافتراض أن عمر الخيام مريض بالإدمان الكحولى، وهو ماتوحى به فعلاً الرباعيات التى اصطلحنا على وصفها بالإباحية، حيث يُظهر فيها الخيام تكالباً على معاقرة الخمر، ويبدو داعياً إلى تناولها، كما لو كان يدعو إلى مذهب من المذاهب التى مدارها سلوكيات معينة وأسلوب فى معايشة الحياة.

والإدمان **الكحولى** اضطراب نفسى مرضى له أسبابه من شخصية المدمن نفسه، ومن بيئته التى تدفعه إلى تعاطى الخمر، ومن تكوينه البيولوجى وواقعه الثقافى والاقتصادى.

والإدمان الذى صار إليه الخيام تشرحه الرباعيات بأنه معاودة دائبة على تعاطى الخمر حتى ليتعاطاها صباحاً ومساءً، وظهراً وعصراً، ولا يؤثِر لتعاطيها وقتاً على وقت، وأقصى مايتمناه أن يداوم على شُربها فلايضيق أبداً.

ويبرر هذا الإلحاح على تعاطيها بأنه يريد أن ينسى همومه، والخمر تريحه ولهذا أطلقوا عليها اسم **الراح**. ويزيد الشرح فى أسباب التعاطى بأنه لايريد إلاّ أن يطرب ويبتهج، ولايقصد أن يسىء الأدب مع الله الذى حرّمها.

ويسترسل فى تعمق أسبابه بأنه قضى عمره فى التفلسف لعله يفهم سر القضاء والقدر والموت والشر فلم يلحقه من التفكير إلاّ ضياع العمر، ولم يخرج بنتيجة. وكان إحساسه بالإحباط شديداً، واليأس الذى ألّم به خانقاً حتى أنه فكر فى الانتحار، ولم ينقذه من تحقيق فكرته إلاّ إيمانه بالله.

ويطرح أسئلة كثيرة على نفسه عن أسباب سوء توزيع الثروة فى الدنيا، وظُلم الناس لبعضهم البعض، وتفشِى الجهل، وانتشار الفقر والمرض.

ويقول إنه لو استمر على صحوه فستظل الأسئلة تلح عليه، وليس من سبيل التخلص من إلحاحها إلاّ بالسكر. ويتساءل لماذا لا يسكر وقد وُعِدنا الخمر كثواب فى الجنة، فلماذا لانبدأ بشُربها من الحين؟ ويمتدحها كعلاج لحالته، وكعقار سحرى يستجلب السعادة.

ويشرح طريقته فى تناولها فيقول إن الخمر من دأبها أن تجلو معدن الشارب، وهو إذ يشربها لايُعربِد، وأثرُها فيه محدود، ووعيُه يظل على حاله، ولاينتابه منها إلاّ رعشة يلاحظها فى يديّه وهو يُمسك بالكأس.

ويلخص مايتمناه فى حياته فيقول إنه يتمنى زجاجة خمر وكتاب شعر ووجه الحبيبة الصبوح ورغيف خبز، ولايهم بعد ذلك إنْ كان يسكن القصر أو القفر.

وينصح الراغبين مثله فى تعاطى الخمر أن يكون تناولهم لها فى الخفاء، وأن يختاروا جلساءهم من خفاف الظل المُتْرَفين المتوقّدين ذكاء.

ويقول إن لمجلس الخمر آداباً، ويقارن بين طرائق الناس فى الشرب ويعلن أنه يؤثر طريقة **القلندرية**، ويخص منهم من يسميهم **قلندرية الحانات**، ويحصر ملذاتهم فى ثلاثة: الخمر والسماع والحبيب.

ذلك كان موجز طريقة الخيام فى التعاطى، ودوافعه إليه. و**القلندرية** الذين يقصدهم كانوا طائفة من الصوفية، قيل كانوا من **الملامتية**، تركوا العادات، وأهملوا التقيد بتقاليد المجالس والمعاملات، ولم يُجيزوا الزيادة فى الفرائض، ولم يحرموا أنفسهم من الّلذات المباحة، وألزموا أنفسهم الزهد فى الدنيا وحُطامها، وأن لايدخروا، ولم يبالغوا فى نفس الوقت فى التعبّد والتزهّد، ولم يُظهروا تعبدهم للناس، وآثروا أن يُحسَبوا من الفسّاق، ولم يكن يعنيهم إلا أن يُصفّوا قلوبهم مع الله.

و**قلندرية الحانات** اسم لانصادفه إلا فى رباعيات الخيام، وكأنما قصد واضعه الابتداع، وأن يقول بطريقة جديدة من طرق القلندرية أو الملامتية، تبيح الخمر، وتجيز السماع من رقص وموسيقى وغناء.

ولايعنينا فى هذا الفصل إلاّ تأثير الخمر فى المتعاطى، وصحة تعاطى الخيام للخمر. واحتكامنا للطب النفسى يتيح لنا أن نحكم فى قضية إدمان الخيام للخمر من عدمه.

والمدمن باتفاق آراء العلماء هو الذى يتعاطى الخمر لعدد من المرات فى الأسبوع لايقل عن ثلاث وإلا فهو مجرد معتاد، وقيل هو الذى يشرب بأزيد مما يقضى به العُرف فى الشرب فى هذا البلد دون ذاك.

والإدمان درجات، فمنه العادى، ومنه المزمن، و**الإدمان النفسى** هو الذى تكون له دوافع نفسية، بعكس **الإدمان العضوى** الذى أسبابه خلل فى التكوين العضوى للمدمن.

والمدمن لا يدمن مباشرة ولكن على مراحل، ويستغرق ذلك وقتاً، فهو أولاً يتواجد فى مجالس خمر، فيلاحظ الشاربين ويُعديه سلوكهم، أو يقلدهم لتبعيته لهم، ويتنوق الخمر مازحاً أو مجاملاً فيكتشف فيها وسيلة للهروب من الهموم، فيعتاد شُربها حتى الإدمان.

ويعانى المدمن من اضطراب الشخصية وطريقته فى تعاطى الخمر تكشف نمط شخصيته. والخمر من طبيعتها أنها تُظهر مايتميز به الشارب من طباع بشكل مبالغ فيها. والإفراط فى التعاطى قد يصيب الشارب بحالة من الزهو والنشوة، وقد يلحقه من التعاطى الاكتئاب حتى ليبكى.

والخمر وسيلة للتنفيس عن الدوافع المكبوتة، لأنها ترفع الكف وتزيل القمع اللذين يحُولان دون إظهار المشاعر والرغبات المحظورة، فيتصرف المخمور بحرية أكثر، ويلاحظ عليه أيضاً صعوبة سيطرته على حركاته وكلامه وتفكيره، ويَفسد حكمه على الأمور، ويفقد القُدرة على ضبط انفعالاته، ويضطرب تقديره لنفسه، وتتكون لديه صورة عن نفسه غير واقعية، ويُهمل نفسه فتسوء عاداته وتغذيته، وتتسخ ملابسه، وتتبلد مشاعره، ويغيم استبصاره.

وأثبتت الدراسات على المدمنين من مختلف الطبقات، أن الخمر لايُقبِل على تعاطيها إلاّ أشخاص بعينهم، من بيئات معينة متدنّية اقتصادياً وثقافياً ودينياً، وكانت نشأتهم فى أوساط تسمح بالتعاطى، ولديهم استعداد فطرى وربما وراثى لأن يتعاطوا الخمر، ربما مرجعه نقص فى بعض الأنزيمات يجعلهم لايستفيدون مما يُقدم لهم من غذاء، فيعوضون ماتحتاجه أنسجتهم بتعاطى الكحول.

ويقول المحللون النفسيون إن المدمن له شخصية تابعة، وكانت نشأته فى أسرة مسيطرة، ولم يجد الإشباع من حنان الأم، ولم يرضع كفايته من ثديها، ولذلك هو يعوض عن حاجاته من المرحلة الفمية بالشرب المستمر، ويعوض أيضاً عن لبن الأم بالكحول.

وقد يكون الإقبال على الخمر وسيلة لاستعادة الشعور بالأهمية والقدرة المطلقة اللتين كانتا للمدمن وهو طفل، أو وسيلة للتنفيس عن ميول عدوانية نحو عالم كل مافيه يستولد الإحباط، فإذا استحكم السكْر به أصاب نفسه بالأذى أو توّجه به لغيره.

وقد يجد فى السكْر طريقة للتنفيس عن ماسوشيته، باعتبار السكْر عقاباً يُنزله بنفسه، ويترتب عليه شعوره بالذنب، واستحقاقه للتوبيخ من الآخرين. وقد تكون له دوافع جنسية

غيرية أو مثلية مكبوته فالسُكْر يظهرها وينفّس عنها.

والمدمن لايجترىء على الشريعة أو الحلال والحرام لأنه سكّير، ولكنه يسكر ليكتسب الجرأة التى بها يستطيع أن يواجه المعترضين عليه.

وقد يكون المدمن من النمط المكتئب الذى لايظهر عليه اكتئابه، ولذلك ينشد أن يتعاطى شيئاً من الخمر لعله به يدفع عن نفسه الاكتئاب.

وعلى أى الأحوال، ومهما كانت الدوافع للإدمان فإن الدراسات عليه تجمع على أن الكحول مهدىء وخافض للقلق. والمدمن بالتعاطى يعزل نفسه عن المجتمع، ويتناسى به مشاكله وأسباب فشله. كما أن الدراسات قد أجمعت كذلك على أن المدمن يعانى من الصراعات التى تمزق شخصيته وتفتتها.

ذلك كان تشخيص الإدمان - فكيف نرى الخيام فى إطار هذه الصورة؟

أولاً: لم تكن فى حياة الخيام ضغوط اقتصادية أو عوامل بيئية ثقافية منحطة تدفع به إلى الإدمان، فكان تعليمه على يد أشهر معلم فى نيسابور وهو الإمام الموفق النيسابورى، وكان زميله فى الدراسة الوزير نظام الملك ابن الموسرين، وكانت النخبة من أولاد الطبقة العليا هم الذين يزدحمون على التلقى على الإمام النيسابورى. ولا أعتقد أن الوسط الذى نشأ فيه الخيام وترعرع كان محروماً، أو متدنى التعليم، أو مهتز القيم، أو ينقصه التدين، أو يسمح بتعاطى الخمور.

ثانياً: ولم يثبت أن الخيام تزوج وأنجب، ولذلك لم تكن فى حياته ضغوط عائلية تدفع به إلى الهرب منها وتناسيها بتعاطى الخمر.

ثالثا: وهناك من الدلائل أن الخيام كان قوى الشخصية، وكانت نشأته نشأة سوية، فلم يكن يعانى من حرمان فى الطفولة يمكن أن يعوض عنه فى الرُشد بتعاطى الخمر، وكانت حياته ناجحة، وحققّ ذاته فى المجال العلمى، وكانت له إبداعات، ولم يكن هناك مايجعله يلجأ إلى النكوص ليرتد إلى زمن الطفولة لاستعادة الشعور بالأهمية وبأنه قادر على فعل مالم يقدر على فعله وهو رجل. وسارت حياته سويّة فلم تكن له مشاكل مع الأسرة أو مع السلطة أو مع زملائه. ولم يذكر أىُ من مؤرخيه أنه عدوانى أو كان يسعى إلى التنفيس عن عدوانيته المكبوته بتعاطى الخمر.

رابعاً: أن الخمر قد ثبت أنها تزيل الكف وترفع الحياء وتكشف المستور من شخصية الشارب، وتفسد الحكم والسيطرة على الحركات والانفعالات. وكان الخيام حتى آخر يوم فى

حياته الفيلسوف والصوفى حتى النخاع، بينما عكست الرباعيات المنحلّة هذا التدهور فى الشخصية عند واضعها. وبعض هذه الرباعيات كان غثاً شديد التفاهة ودليلاً على اضطراب فى إبداعية وحكم مؤلفها الحقيقى.

خامساً: تشيد الرباعيات المنحلّة بأصحاب السوء وتثبت تأثيرهم الهابط على مؤلفها، وكان بالمناخ العام فى نيسابور الكثير من المثالب الدينية. والخيام كما يذكر مؤرخوه كان مقرباً من السلطان ملكشاه، وكان الخاقان شمس الملوك فى بخارى يعظّمه ويجلسه معه على سريره، وكان التعاطى يكاد يكون هو القاعدة فى دوائر هؤلاء الحكام، وكان أهل الفكر يُضطرون إلى منادمتهم ومجاراتهم فى الشرب. وتكاد تكون هذه هى النقطة الوحيدة المؤيدة لاحتمال أن يكون الخيام قد تردّى فى هذا الزلل كما تقول الدكتورة مريم زهيرى.

سادساً: ولم يثبت أن الخيام تدهورت شخصيته وأصيب بأى من الاضطرابات العقلية التى يُصاب بها المدمنون للخمر، كالهذيان الارتعاشى أو عَرَض كورساكوف. كما لم يثبت أن تاريخه المرضى فيه أى من الاضطرابات المصاحبة للإدمان، كالتسمم الكحولى أو الهلاس الكحولى أو التدهور الكحولى.

سابعاً: وتشيد قصة وصية نظام المُلك - التى ذكر فيها عن الخيام وعن زميلهما الآخر حسن الصباح - بأخلاق الخيام، وتثبت أنه لم تكن له مشاكل فى طفولته كالتى كانت لحسن الصباح أو لنظام الملك نفسه. ولم تكن صورته عن نفسه غير واقعية فيطلب أن يكون فى الوزارة كما فعل ابن الصباح، وكذلك لم يُهمل نفسه، ولم يحدث أن أصيب استبصاره بالغيم. ورغم بلوغه سن الشيخوخة (قيل إنه مات عن ٨٥ سنة) فإن قواه العقلية ظلّت سليمة، ولو كان من المدمنين لأسرع الإدمان باتلاف المخ والجهاز العصبى وبكّرت به الشيخوخة وأعراضها.

ثامناً: أن الاعتذار بأن الخيام كان من الذكاء بحيث يدرك أضرار الخمر فلا يقربها، مردود عليه بأن ابن سينا والفارابى وكانا من كبار الفلاسفة - كانا يتعاطيان الخمر، حتى أن ابن سينا - كما قيل - مات متأثراً بها ومن داء القولنج، وأشاد بها الفارابى أسلوباً لحياته كما فى هذه الأبيات التى اشتُهرت عنه :

بزجاجتين قطعت عمرى * وعليهما عوّلت أمرى

فزجاجة ملئت بحبر * وزجاجة ملئت بخمر

فبذى أدّون حكمتى * وبذى أزيل هموم صدرى

ومع ذلك فابن سينا والفارابى لم يُلقبا بحجة الحق والإمام كما لُقب الخيام. والاحتمال أقوى

إذن أن الخيام لم يسلك سلوكهما. وأنه استحق عن جدارة هذين اللقبين، ولم يتأثر إنتاجه الفكرى فظل متماسكاً عقلياً ووجدانياً، وظل احترام تلاميذه له قائماً. ويحكى مؤرخوه أنه عندما جاءته الوفاة كان يتأمل أصعب كتب ابن سينا وهو كتاب **الشفاء**، وأنه كان يقرأ فى قسم الإلهيات، وأنه صلّى، وكان صامتاً إلاّ من عبارته الرائعة التى تثبت له العرفانية بالله.

فكيف يكون إذن مدمناً؟ وكيف تنسب له الرباعيات المنحلة - وهذه صفاته وسلوكه وتاريخه الصحى والفكرى؟

الذى لاشك فيه إذن أن الرباعيات المنحلّة منحولة عليه، ولم يكتبها، وليس صاحبها هو عمر الخيام الذى نعرفه، وإنما هى مجموعة منظومات شعرية تافهة وركيكة النظم والبناء منْ وَضْع مُجّان العصر، ورثة تراث أبى نواس وعصابة المُجّان التى أسلفنا القول عنها.

*****